كشف الغطاء
عن أصل التصوّف وتاريخه

بقلم الشيخ محمّد محمود مصطفى الباز
الداعية بمركز الدعوة والإرشاد بقطر

والحق يقال: إن كلمات التصوف والصوفية والصوفى لم يأت شىء من ذلك في الإسلام وتشريعه ولا في اللغة العربية التي هى لغة القرآن والتى بها نزل ولم تأت هذه الكلمات في القرآن الكريم ولا في جميع كتب السنة الصحيحة وكذلك لم ترد فى عصر الرسول الكريم ﷺ ولا فى عصر الخليفة الراشد أبي بكر الصديق ولا فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ولا فى عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان ولافى عهد أمير المؤمنين على ابن أبي طالب رضى الله عنهم. إذا فمن أين اشتقت هذه الكلمات وما نسبها حيث إنها ليست إسلامية؟ اشتقت من لفظة يونانية الأصل هى: «صوفيا» ومعناها الحكمة فيكون الصوفية قد لقبوا بها نسبة إلى الحكمة لأنهم كما يدعون ويوهمون السذج من الناس أنهم يبحثون فيما يقولون أو يكتبون بحثاً فلسفياً، ويؤيد ذلك أنهم لم يظهروا بعلمهم هذا ولاعرفوا بهذه الصفة إلا بعد ترجمة كتب اليونان ودخول الفلسفة فيها ـ وهناك رأى يقول إن طائفة الصوفية منسوبة إلى (سوفيا) التى كان سقراط صديقها ـ ومهما يكن من الأمر فإن الذى لاريب فيه هو أن هذه الطائفة لم تُسَمَّ بهذا الاسم إلا في منتصف القرن الثاني الهجرى ـ وقال ابن خلدون فى مقدمته: «لايشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية

ولاقياس والظاهر أنه لقب ـ وأما القول باشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوى، قال: وكذلك من الصوف لأنهم لم يُخْتَصُّوا به.

امتزجت الصوفية بعناصر إغريقية وهندية ومانوية مما يسمونه (التصوف النظرى) وهو مؤسس على الحلول ووحدة الوجود مما تدعو إليه الفلسفة الهندية والأفلاطونية الحديثة، والتى عدها المسلمون خطراً على دينهم، واضطهدوا القائلين بها وقتلوا الحلاج من أجلها كما سنذكره بعد، ولاريب فى أن مذهب وحدة الوجود هو مذهب الأفلاطونية الحديثة وقد أدخل عليه المتأخرون منهم بعض تعبيرات أخذوها من فرقتى الإسماعيلية والرافضة، مثل القول بقطب الوقت المتصرف في شئون الكون وماشاكل ذلك (سبحانك هذا بهتان عظيم).

● توغل الصوفية في نشر المبادىء الهدامة فتكلموا بالحلول والوحدة وملأوا الصحف منه مثل السهرورى فى كتاب (المقامات) له وغيره، وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلاميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلي، وكانوا مخالطين للإسماعيلية والمتأخرين من الرافضة القائلين بالحلول وإلهية الأئمة فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر، واختلط كلامهم، وتشابهت عقائدهم، وظهر فى كلام الصوفية القول بالقطب ومعناه (رأس العارفين) يزعمون أنه لايمكن أن يساويه أحد فى مقامه فى المعرفة حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان كما يزعمون.

وأول بدء ظهور هذه الطريقة فى التاريخ المعروف فى الكنيسة

الرسمية حيث تسربت إليها بطريق مسيحيي الشام الذين أخذوها عن الـديانـة الأغـريقية، بعد أن نشط تيارها الهادىء، واجترف الكنيسة الشرقية، والفكـرة فى أصلهـا الأول ترجـع إلى الفلسفـة الإفلاطونية الجـديدة التى تدعـو إلى ضرورة إنكار الدنيا وأغراضها والسعى وراء التقرب إلى الله والتفانى فى حبه بطريق الزهد والتصوف.

وهذا يعارضه صريح القرآن الذى كثيراً ماحض على العمل للدنيا والتمتع بطيبات الحياة التى أحلها قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ الأعراف آية ٣٢.

فلم يكن الإســلام ليفســح مجالاً للرهبــانية المسيحية والتقشف الهندى، بل كثيراً ماحض على العمل للدنيا والتمتع بطيبات الحياة، فهو بعيد فى تعاليمه عن طريقة القسس والرهبان في بيعهم وصوامعهم وسنة فقراء الهنود، إلا أنه بالرغم من ذلك نجد أن هناك تعاليم مختلفة هندية وفارسية وإغريقية ومسيحية أثرت في تكوين المتصوفة.

وأول من ظهر من الشام ناشراً لواء دعوة التصوف هو (بارسودَيْلى) فى القرن السادس الميلادي.

وأول العلماء الصوفيين هو الحارث المحاسبى المتوفى سنة **٢١٣** هـ كان يرى عدم ضرورة التقيد بالمراسيم التقليدية، بل كان يذهب إلى أبعد من ذلك إلَّا أنه أحيط بما يعكر عليه صفوه من الصوفية أيضاً وهو (ذو النون المصرى) المتوفى سنة **٢٤٥** هـ فقد قام بدعاية واسعة لعلم كيمياء الذهب وأحلامه اللذيذة مجتهداً فى إيجاد رابطة بينه وبين تعاليم

الصوفية وقواعدها.

وأما فى شرق البلاد الإسلامية فقد صادفت الصوفية في طريقها تيارات العقائد الهندية البوذية، فتأثرت بها إلى حد بعيد، وكادت تودى بالصوفيين إلى حد الإلحاد واعتناق المذاهب الاشراكية، وظهرت الأفكار الضالة بشكل واضح في أشهر الصوفيين في القرن الثالث من الهجرة (حسين الحلاج) وهو من أصل فارسى وكان أستاذه «الجنيد» المتوفى سنة ٢٩٧ هـ متمسكاً بالتعاليم الإسلامية، ولو أنه كان يتجنب الجدل والحوار فى مسائل العقائد الأصلية، ولكن الحلاج ارتأى أن لاداعى يدعوه للتمسك بقواعد الإسلام الحقة، وظن أنه يملك مزايا غير طبيعية ومستحوذاً على قوى خارقة للعادة، وتمكن من أن يجد من صغار العقول وضعاف العقيدة من يلتف حوله ويستمع لهذيانه ويؤمن بمازعمه من أراجيف، ولكنه تمادى فى أوهامه، فذهبت بلبه وصوابه، وتوهم أن الله عز وجل قد حل فى جسمه، فسرعان ماثارت عليه البلاد وانقلبت ضده الحكام ولقى حتفه سنة ٣٠٩ هـ ببغداد وبإعدامه اختفت هذه الأفكار الإشراكية المتطرفة من تعاليم الصوفيين المجترئين الموجهة مباشرة إلى الرأى العام، فقبعوا فى عقر دارهم زمناً طويلاً، وكفوا بذلك الناس شر آرائهم المتطرفة، ووفروا عليهم بلبلة أفكارهم.

بقيت العقائد السُّنِّيَّة منتصرة ضد الصوفية منذ آخر القرن الثالث من الهجرة وطوال القرن الرابع.

وفي أوائل القرن الخامس الهجرى نهض من علماء نيسابور عبدالكريم القشيرى فى عام ٤٣٧ هـ لإحياء العلوم الصوفية، وبعث

برسالة إلى أنصار هذه الطريقة من العلماء المعاصرين يناشدهم نصرة الـطريقة وإحكام عرى التعارف بينهم وتبادل الآراء لتجديد التعاليم الصوفية التى كادت السنون تغير من معالمها وتذهب بأصولها، ولم يكد القرن الخامس يوشك على الانتهاء حتى اهتم الغزالى بالاشتغال بأمور الصوفية ووجد فيها عوضاً عما كان يصبو إليه فى مقتبل حياته من أبحاث علمية.

وفي القرن السادس الهجرى انتشر التصوف والصوفية بكثرة في أنحاء العـالم الإسـلامي شرقـاً وغـربـاً، ووضعوا كثيراً من القواعد الجديدة والتعاليم المختلفة فى هذه الطريقة التى يزعمون أنها دينية.

وكـانت الشام لاتزال حتى هذا العصر مهداً لهذه الطريقة، ومنبتاً لعلومها، واشتهر من علمائها فى القرن السادس (على الحكارى) المتوفى سنة ٥٥٨ هـ بعد أن شيَّد خانقاه للمتصوفين على جبل حكار بجوار الموصل، وقام برحلات واسعة للوعظ والإرشاد وأسس طريقة العدوية التى بقيت نشيطة حتى القرن السابع الهجرى، ولازالت بعض الطرق الكـردية المعـروفـة باسم «يزيدى» تقـدسـه وتزيد في تمجيده لإحيائه مذهبهم وتوثيق عقيدتهم.

وفى بغداد اشتهر من علماء الصوفية فى هذا العصر عبدالقادر الجيلى المتوفي سنة ٥٦٤ هـ وهو مؤسس الطريقة الكبيرة المعروفة باسم القادرية ولقد عرف كيف يتسلط على عقول أتباعه ومريديه وحاز شهرة واسعة.

وهكـذا إلى أن ظهـر شهاب الدين السهروردى وجاء بما تخطى به الحدود المباحة وخرج على كتاب الله وسنة نبيه، وكان يحيى حياة درويش

متجول، فكان يظهر تارة فى بلاد الفرس، وطورا فى العراق إلى أن نزل أخيراً بمدينة حلب ضيفاً على بلاط الملك الظاهر بن صلاح الدين، وكان يجتهد فى الإذاعة عن نفسه بأنه قادر على الإتيان بالمعجزات الخوارق، وكانت تظهر فى تعاليمه وأفكاره علاوة على آثار الفلسفة الإفلاطونية الجديدة التى نشأت عنها الصوفية القديمة في الإسلام بعضُ الآراء الإيرانية العتيقة والعقائد الفارسية الشيعية عن الإمام المختفى، وكان يسمى طريقته بطريقة النور، ولذا فإن الدراويش الذين جعلوه زعيمًا لجماعتهم كانوا يطلقون على طريقتهم «النوربخشية» أى الذين يعطون النور، ولقد تذمر السنيون كثيراً من تعاليمه الفاسدة وعقيدته السقيمة، وتمكنوا أخيراً من حمل السلطان على اضطهاده والحكم بإعدامه فأعدم سنة ٥٨٧ هـ.

وأشهر علماء الصوفية فى هذا العصر فى البلاد الإسلامية الغربية هو أبومدين الذى ظهر بمدينة تلمسان وتوفى بها عام ٥٩٨ هـ ولايزال كثير من أهالى تلك البلاد تحيى ذاكراه وتمجد اسمه.

وجاء من بعده على الشاذلى فأسس طريقة صوفية خاصة وتوفى سنة ٦٥٦ هـ. وأكبر علماء المتصوفين على الإطلاق محى الدين محمد بن عربى ولد بالمرسية سنة ٥٦٠ هـ وطلب العلم بمدينة إشبيلية ورحل إلى بلاد الشرق عام ٥٩٨ هـ وتنقل بين العراق وآسيا الصغرى إلى أن استقر به المقام أخيرا بدمشق حيث توفى سنة ٦٣٨ وألف كتابا أسماه (الفتوحات المكية).

امتاز بالأفكار الفلسفية ـ وله مؤلفات فلسفية غير ذلك ضمنها الفلسفة الإغريقية والفلسفة الهندية، وتضامن من أحد علماء الهنود فى

تنقيح وإعـادة نشر الكتاب الهندى الكبير المعروف باسم (أمرتاكنده) الذي يبحث فى ارتباط العالم الصغير بالعالم الكبير والعلاقة بينهما، وكان قد قام بنقــل هذا الكتــاب من اللغـة الفـارسية إلى العـربية محمـد السمـرقنـدى سنـة ٦١٥ هـ وكـان كثير الاعتقاد فى الخرافات بشكل واضح ، ، ولكن مؤلفاته بقيت موضع اهتمام العلماء المسلمين ودراساتهم لعدة قرون بعد وفاته، حتى إننا نجد الحوار والجدل بينهم لم ينقطع حتى القرن الثانى عشر من الهجرة، فمنهم من حكم بإلحاده، ومنهم من مال إلى التـوفيق بين تعـاليمـه والعقـائد الدينية الصحيحة وأنى لهم ذلك وكتبه(١) وأشعاره تطفح بالكفر والإلحاد.. وبذلك نكون قد كشفنا فى هذا العجالة الغطاء عن التصوف وعن الصوفية وعن تاريخهم راجين أن تقرأ بتعقل حتى يتبين الرشد من الغى وما أظنه إلا قد تبين فلله الحمد والمنة وصلى الله على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقد تركنا على المحجة البيضاء النقية التى لالبس فيها ولاغموض وهى الشريعة المطهرة من تمسك بها وحرص عليها كان من الناجين المفلحين.

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ «مَنْ أَحْرَمَ بالحجِّ والعمرةِ أَجْزَأَهُ طوافٌ واحدٌ، وسعيٌ واحدٌ عنهما، حتى يحلَّ منهما جميعاً». هذه رواية الترمذي.

---

(١) وقد ضم إلى وحدة الوجود وحدة الأديان أليس هو القائل

فأصبح قلبى قابلاً كل حالة * فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف * وألواح توراة ومصحف قرآن